ناهد حبيب الله *

قدسٌ فلسطينية واحدة: رواية وطنية في طور التشكّل

ملخص

يبين إدوارد سعيد، في سياق منح الإذن بالرواية، العمليات المختلفة التي تفعل فعلها في تشكيل واقع لا يُسمح فيه للفلسطينيين برواية تاريخهم. وينبع هذا القيد الذي يحول بينهم وبين سرد روايتهم من عاملين، أولهما رفض الغرب أن يعيد تقييم قبوله الأعمى للرواية التي تطرحها إسرائيل ورفض الإصغاء لرواية الفلسطينيين. ويتأتّى العامل الثاني من إخفاق الفلسطينيين في سرد روايتهم من خلال خطاب سردي يتسم بترابط مكوناته وتماسكها وانتظامه.

والرواية التي تتناول مدينة القدس مثال حي في هذا الصدد. فقد صاغ المشروع الإسرائيلي الصهيوني رواية عن القدس ترجع إلى ما يربو على ٤,٠٠٠ سنة، على نقيض الرواية الفلسطينية التي تنحصر في فترة قصيرة من تاريخ مدينة القدس الفلسطينية وتُستهل مع الأحداث التي وقعت في العام ١٩٦٧. تدرس هذه الورقة التداعيات التي تفرزها هذه الرواية القاصرة والطرق التي تقوض فيها الادعاء الذي يطرح الفلسطينيون فيه أحقيتهم بالمدينة. كما تنظر الورقة في الطريقة التي يمكن فيها لرواية منقوصة تتناول القدس الفلسطينية أن تؤثر تأثيرًا سلبيًا في الادعاء الذي يقيمه الفلسطينيون بحقهم في مدينتهم.

مقدمة

يشكّل الخطاب السردي السبيل الذي نملكه نحن البشر في تمثيل الواقع وتصويره من خلال مواءمة الأحداث وتنسيق بعضها مع بعض من أجل إنشاء

* أستاذة في الجامعة العربيّة الأمريكيّة في فلسطين. تتضمّن اهتماماتها الأكاديميّة علم الاجتماع الدّيني وعلم الاجتماع السّياسي وعلم الاجتماع الثّقافي. تتضمّن المقالات الأكاديميّة الّتي نشرتها وقدّمتها العناوين الآتية: "تفكيك القدس الفلسطينيّة" و"تمثيل المرأة في السّينما الفلسطينيّة" و"المشاعر والجنسيّة ودولة القوميّة: الولايات المتّحدة وإسرائيل".

رواية وبنائها (Abbot, 2008). فهذا الخطاب هو الطريقة التي نعمد إليها في تكريس رواية عن أنفسنا تمتد من الماضي إلى المستقبل، بحيث يجري انتقاء أحداث من الزمن الماضي واختيارها لغايات رسم معالم رواية تبيّن الطريق الذي ينبغي لنا أن نسلكه إلى المستقبل (Wood, 2011). فحسبما يذكّرنا ريكور (Ricoeur, 2011) به، تُعَدّ الرواية الوسيلة التي يستخدمها الأفراد والجماعات بغية حل المعضلة التي يشكلها الزمن. فالمرء يستحوذ مضيّ الزمن وسرعة زواله ويستأثر به من خلال تشكيل رواية تتجاوز الفرد وتمتد إلى الجماعة. ولذلك، تضيع هوية الفرد وتُختزل في هوية الجماعة التي تتخطى في بقائها ودوامها التجربة القصيرة التي يعيشها هذا الفرد في سني حياته وتتجاوزها إلى التجربة الأبدية التي تخوضها الجماعة في وعيها. وفي سياق تشكيل الرواية القومية وسردها، ينتهي المطاف بالأفراد داخل جماعة من الجماعات إلى النظر إلى أنفسهم باعتبارهم جزءًا من الرواية الأعم، التي تتمثل في الأمة.

ولم تزل مدينة القدس منذ العصور الغابرة أرضًا تدور رحى النزاع حولها وموقعًا للصراع على امتلاك السلطة عليها بسبب أهميتها بوصفها مركز الديانات السماوية الثلاث. فباسم الدين (أو الأديان)، انطلقت شرارة المعارك وغُزيت المدينة وسكانها مرات عديدة.

تتبنى هذه الورقة موقفًا نقديًا تجاه الطريقة التي تُسرد فيها الرواية التي تتناول القدس في سياق الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. وتستهل الورقة بمقدمة موجزة تعرّج فيها على الدور الذي تؤديه الرواية في تمثيل الواقع، ثم تمضي إلى بيان الطريقة المعتمدة في سرد رواية القدس في كلا المشروعين الوطنيين الإسرائيلي والفلسطيني.[1] وتُختتم الورقة بإقامة الحجة التي تثبت أهمية إعادة كتابة رواية فلسطينية بشأن القدس، بحيث تتخطى حدود الرواية السائدة القاصرة التي قيدّت الرواية الفلسطينية التي تتناول المدينة وحصرتها في جزئية ضئيلة مما هي عليه بالفعل، وهي تلك التي تطلق عليها تسمية القدس الشرقية اليوم. ونحن نفترض أن هذا التضييق والحصر قد أتاحا إرساء رواية صهيونية تؤكد حق الصهاينة في القدس كلها، في الوقت نفسه الذي تعمل فيه على التعمية على حق الفلسطينيين في عاصمتهم التي ترزح تحت نير الاستعمار بجميع ربوعها. تستند هذه الورقة إلى نظريات السرد، والخطاب السردي، والتاريخ والهوية السردية لكي تستكشف الطرق التي ينبغي من خلالها تأطير الرواية القومية الفلسطينية بشأن مدينة القدس وتشكيلها.

الرواية: عامل من عوامل تمثيل الواقع

من السذاجة أن نفترض أن رواية تتناول أمرًا من الأمور لا تزيد عن أن تشكل صورة محايدة من صور الخطاب الذي يوظَّف في سرد «الأحداث الواقعية». في هذا المقام، يؤكد وايت (White, 1990: ix) أن الرواية تشكّل «اختيارات أنطولوجية ومعرفية تنطوي على دلالات أيديولوجية متمايزة، بل ودلالات محددة من الناحية السياسية». ويجرى تضمين الرواية في إنتاج المعنى، حيث يجد الأفراد ما يجذبهم ويغريهم بالعيش على نحو يميزهم عن غيرهم في «علاقة متخيَّلة مع ظروف وجودهم الواقعية» (White: 1990: x).

ويسهم التاريخ، بوصفه رواية تسرد الأحداث الواقعية، في اختزال أحداث متباينة وحصرها في حبكة من أجل صياغة رواية ما. فالأحداث التي ترد في حقبة من الحقب التاريخية هي أحداث حقيقية، لكن يجري اختيارها وانتقاؤها أيضًا، وقد تسلط الضوء بحكم ذلك على أحداث بعينها في الوقت نفسه الذي تقلّل فيه من شأن أحداث أخرى قد تعطي تفسيرًا مغايرًا للرواية نفسها. فالتاريخ يعبّر عن خطاب الواقع، «حيث يرتدي الواقع قناع المعنى والتمام والكمال – فلا يزيد عن كونه متخيلًا مع أن أحدًا لم يجربه ويسبر غوره قط» (White: 1990: 21).

وقد قوضت نظريات نقدية عديدة مصداقية الروايات التاريخية باعتبارها صوتًا يعبر عن الادعاءات التي تسوقها القوة والسلطة والحقيقة وتطالب بإعادة تقييم المواد التاريخية لكي تتضمن بين ثناياها أصوات الجماعات التابعة والفئات المحرومة من حقوقها والفئات الضعيفة التي لا حول لها ولا قوة. لذلك، بات يُنظر إلى تمثيل التاريخ وتصويره كما لم يكن شيئًا غير حبكة تتحكم في عناصر الرواية وتتلاعب بها على نحو يخدم خطابًا محددًا من أجل تشكيل واقع بعينه. وبناءً على ذلك، ثمة فسحة ضمن رواية من الروايات التاريخية لوجود ما لا يقل عن روايتين متعارضتين تقف إحداهما على طرفي نقيض مع الأخرى.

ينطوي الخطاب السردي على زرع الأوهام وبثّها، وهذا يعني أن الأحداث الواقعية يرتبط بعضها ببعض من خلال اتجاه خطي أحادي لغايات تشكيل رواية تتسم بالتماسك والتعاضد بين أجزائها. وينغرس الخطاب السردي ويتأصل في علاقات السلطة، التي يستطيع بموجبها أولئك الذين يمسكون بزمام السلطة أن يشكلوا رواياتهم وينشروها كما لو كانت حقائق.

وبحكم ما تقدم، ينطوي الخطاب السردي على زرع الأوهام وبثّها، وهذا يعني أن الأحداث الواقعية يرتبط بعضها ببعض من خلال اتجاه خطي أحادي لغايات تشكيل رواية تتسم بالتماسك والتعاضد بين أجزائها. وينغرس الخطاب السردي ويتأصل في علاقات السلطة، التي يستطيع بموجبها أولئك الذين يمسكون بزمام السلطة أن يشكلوا رواياتهم وينشروها كما لو كانت حقائق. وبالنسبة لفوكو (Foucault 2000: 131)، تكمن قوة الخطاب فيما يفرضه من نظام الحقيقة الذي يخفي علاقات السلطة ويحجبها.

وطالما نظر عدد ليس بالقليل من الباحثين إلى الرواية على أنها في منزلة الضرورة التي لا يُستغنى عنها في تشكيل المعرفة وتوطيد أركان هوية الجماعة وقدرتها على تحويل المعرفة عبر الزمن ودمجها في ثقافة جماعة من الجماعات، على الرغم من العلاقة الإشكالية التي تجمع هذه الرواية بالواقع القائم. لذلك، تتيح العلاقة الجدلية التي تجمع الرواية بالعالم المادي إمكانية جلب الخلاص للذوات الاجتماعية وتمظهراتها الجمعية بالنظر إلى أنها تيسر الإحساس بالهوية ومجموعة من المعارف التي تأتي في صورة رواية كبرى. إنها، بعبارة أخرى، ثقافة تعين الأفراد على المناورة في الحياة.

مع ذلك، قد تتراوح المظاهر السلبية التي تنطوي الرواية عليها من تشكيل الحقيقة أو - حسبما يرد على لسان فوكو - نظام حقيقة يفرض رواية محددة من خلال تحكُّمه في السلطة. فربما توظف النخب السياسية الرواية لغايات تشكيل ثقافة مهيمنة تقوم في أساسها على أيديولوجيا سياسية تضفي سمة شرعية على الوقائع التي تقوم على الإقصاء وتفتقر إلى العدالة وتسبغ صفة طبيعية عليها وتجسّدها في واقع مادي ملموس.

ويؤمّن فعل الرواية، السرد، «اتساق الحياة وانسجامها» (Ricoeur in Wood, p.195). ويذهب ريكور إلى أبعد من ذلك في ما يفترضه من أن هوية الرواية تتأسس من خلال وضع الأحداث المختلفة في الاعتبار من أجل تشكيل رواية (أو تاريخ) (سواء كان ذلك تاريخ فرد أو مجتمع تاريخي). وتكمن أوجه التشابه بين الرواية التاريخية والرواية المتخيلة في فعل الانتقاء، حيث تستخدم هذه الرواية بشقيها الأحداث للمضي «بالحبكة» قُدمًا. وتوجه تلك الأحداث هوية الرواية بالنظر إلى أن فعل الانتقاء يفرض الاتجاه ومسار الواقع. وفي المحصلة، يضفي إنتاج هوية رواية من الروايات الاتساقَ والانسجامَ على الحياة ويسلك اتجاهًا محددًا نحو المستقبل (Ricoeur in Wood,199: 188).

الرواية التاريخية التي تتناول القدس - منظور إسرائيلي مسيحاني صهيوني

ما من شك في أن مدينة القدس تتبوأ مكانة الصدارة في التقاليد الدينية اليهودية الطريقة نفسها التي تتبوأها في الديانتين السماويتين الأخريين، وهما المسيحية والإسلام. نستطلع في هذا المبحث الطريقة التي اتُّبعت في دمج الديانة اليهودية وتضمينها في الرواية الاستعمارية الاستيطانية التي تعتمدها إسرائيل لغايات شرعنة السيطرة التي تبسطها على المدينة. فحسبما سيتضح لنا، كان أول إجراء عمد إليه مهندسو المشروع الصهيوني يتمثل في صياغة رواية تاريخية تتصل بالشعب اليهودي باعتبارها محورًا أصيلًا لا

القدس المحتلة: عفوية الحياة تقابلها أدوات الموت. (أ.ف.ب)

ينفصم عن تشكيل دولة إسرائيل القومية الحديثة.

لقد تمخضت إسرائيل عن فكرة كانت تختمر في أذهان قلة من الحالمين اليهود، الذين وجدوا ما يلهمهم في الحركات القومية الإثنية التي شهدتها أوروبا خلال القرن التاسع عشر. وحسبما يوكده إغنوتس، «تولد أمة من الأمم عندما يقرر عدد قليل من الأشخاص أن ولادتها أمر لا بد منه» (Anderson, 1983: 73). وثمة عنصران يُعدان جديدين على تشكيل دولة إسرائيل، أولهما أن الهوية القومية الإسرائيلية الحديثة استندت إلى الديانة اليهودية في عملها على بناء مجتمع متخيل، وثانيهما أن هذا المجتمع المتخيل كان يتطلع إلى إرساء الدعائم اللازمة لتشكيل هوية جمعية تجمع مختلف الجماعات اليهودية المشتتة في شتى أصقاع العالم، والتي لم يكن أفرادها ينظرون إلى أنفسهم كما لو كانوا ينتمون إلى عرق أو أمة «يهودية» متميزة عن غيرها (Rabkin, 2016: 4).

ينبغي دراسة الحركة الصهيونية بوصفها مشروعًا استعماريًا في إطار المشروع الاستعماري الأوروبي الأوسع، الذي يتحمل المسؤولية عن تقسيم الشرق الأوسط بين فرنسا وبريطانيا العظمى على أساس اتفاقية سايكس بيكو التي أُبرمت بينهما في العام ١٩١٦، ومن خلال الانتداب البريطاني في فلسطين وما أبداه من التزام بإقامة وطن قومي للشعب اليهودي حسب الإعلان الوارد في وعد بلفور الصادر في العام ١٩١٧. وتعد شرعنة مشروع الاستيطان الصهيوني وإضفاء طابع أصلاني عليه من خلال الدعم الذي أمدّته القوى الاستعمارية به أحد الأسباب الرئيسة التي وقفت وراء النجاح الذي سجله هذا المشروع القومي. إن وعد بلفور بشأن «فلسطين العثمانية عكس في طياته التقليد الذي كان راسخًا في الأصل ويقوم على توظيف المعتقدات المسيحية في تعزيز المطامع الإمبريالية لدى القوى الأوروبية» (Rabkin, 2016: 25).

بناءً على ما تقدم، تحول اليهود الأوروبيون الذين هاجروا إلى فلسطين من «آخر داخلي» إلى جزء لا يتجزأ من المخيال الأوروبي اليهودي المسيحي الذي ما فتئ يتعاظم في هذا المخيال ويستفحل فيه. ويشكل المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني امتدادًا لمشروع الاستعمار الأوروبي، الذي اجتاح الشرق الأوسط ولا

حوّل المشروع الصهيوني الديانة اليهودية من ديانة يدين بها شعب إلى إثنية لكي يسوغ استيلاءه على فلسطين ويجذب اليهود ويغريهم بالهجرة إليها. وركزت الخرافة القومية التي أذاعها هذا المشروع على خطاب سردي افترض وجود امتداد تاريخي بين جميع اليهود من خلال سلالة من النسب الذي يربط يهود العالم كافة «بأسلافهم» الذين سكنوا في ماضي عهدهم في أرض كنعان وببعضهم بعضًا من خلال تأكيد «نقاء الدم».

يـزال يجتاحـه حتـى يـوم النـاس هـذا (Said, 1992). وقـد «أثبـت أنـه يشـكل جـزءًا طبيعيًـا مـن المطامـع الاسـتعمارية [الغربيـة]» (Rabkin, 2016: 25).

حـوّل المـشروع الصهيونـي الديانـة اليهوديـة مـن ديانـة يديـن بهـا شـعب إلى إثنيـة لكـي يسـوغ اسـتيلاءه عـلى فلسـطين ويجـذب اليهـود ويغريهـم بالهجـرة إليهـا. وركـزت الخرافـة القوميـة التـي أذاعهـا هـذا المـشروع عـلى خطـاب سردي افـترض وجـود امتـداد تاريخـي بـين جميـع اليهـود مـن خـلال سـلالة مـن النسـب الـذي يربـط يهـود العالـم كافـة «بأسـلافهم» الذيـن سـكنوا في مـاضي عهدهـم في أرض كنعـان وببعضهـم بعضًـا مـن خـلال تأكيـد «نقـاء الـدم» (Zerubavel, 2003: 56). ونتيجـةً ذلـك، اخترعـت الحركـة الصهيونيـة تقليـدًا يهوديًـا (Sand, 2010) عـن طريـق إضفـاء معنًـى عـلى الأحـداث المتباينـة التـي شـهدها الزمـن الغابـر مـن أجـل تشـكيل خرافـة قوميـة متماسـكة ومتراصّـة. «فالتقاليـد المخترَعـة، مـن وجهـة النظـر هـذه، توظـف التاريـخ مـن أجـل إضفـاء المصداقيـة عـلى الإجـراءات والادعـاءات وترسـيخ 'اللُّحمـة بـين أفـراد الجماعـة'» (Hobsbawm, 1983:12).

وغـدت القـدس، بمـا تتبـوأه مـن مكانـة محوريـة في الديانـة اليهوديـة، مكونًـا أساسـيًا في تشـكيل الخرافـة القوميـة (Smith, 1988) التـي تقـوم دولـة إسرائيـل الحديثة عليهـا. فقـد وجـد المـشروع الاسـتعماري الـذي تتعهـده إسرائيـل مـا يضفـي صفـة المشروعيـة عليـه في تشـكيل روايـة تخفـي سـمته الاسـتعمارية وتعمـي عليـه مـن خـلال الادعـاءات التـي يسـوق أصلانيتـه فيهـا. واختطـف المـشروع الاسـتعماري الاسـتيطاني القـدس في إطـار هـذه الروايـة، حيـث ادعـى بـأن القـدس العتيقـة التـي آوت عـددًا لا يحـصى مـن الأعـراق والإثنيـات إنمـا هـي ملـك الشـعب اليهـودي وحـده لا ينازعـه فيهـا أحـد. وولّـدت هـذه الروايـة انطباعًـا يوحـي بوجـود رابطـة لـم تنقطـع بـين الشـعب اليهـودي القديـم الـذي سـكن أرض كنعـان في ماضيـه الغابـر والمـشروع الاسـتعماري الصهيونـي الـذي قـام في زمننـا المعـاصر. وأسـفر ذلـك عـن تمثيـل «التاريـخ اليهـودي تمثيـلًا غائيًـا أفـضى إلى بلورتـه حسـب الرؤيـة الصهيونيـة في نهايـة المطـاف» (Rabkin, 2016: 25). ولا تشـمل هـذه الورقـة في نطاقهـا دراسـة العلاقـة التـي تجمـع دولـة إسرائيـل بالتقاليـد اليهوديـة، ويكفـي هنـا أن نقـول إن شرعنـة المـشروع القومـي اليهـودي كانـت تعنـي، منـذ انطلاقـه، أن الديانـة اليهوديـة بوصفهـا روايـة دينيـة كان لا بـد مـن تضمينهـا في مخيـالات الأمـة وغرسـها فيهـا. وفضـلًا عـن ذلـك، فقـد اسـتأثر هـذا المـشروع بالسـلطة السـامية التـي يملكهـا الـرب ودمجهـا في العالـم الدنيـوي للادعـاء بـأن الـرب «منـح» القـدس لشـعبه المختـار.

كان بـن غوريـون وزمـرة قـادة الحركـة الصهيونيـة عـلى علـم بـأن إضفـاء صفـة مشروعـة عـلى وجودهـم في فلسـطين كان لا بـد مـن صياغتـه وتشـكيله مـن خـلال إدمـاج الديانـة اليهوديـة بوصفهـا الخرافـة القوميـة الرئيسـة التـي تخـص الأمـة الجديـدة، وهـي خرافـة حظيت بالقبـول وأُضفيـت سـمة طبيعيـة عليهـا في أوسـاط القـوى العالميـة حينئـذ ولـدى القـوى العالميـة اليـوم. وقـد أشـار بـن غوريـون إلى أن «الحـق في إقامـة دولـة صهيونيـة يُسـتمد مـن العلاقـة التاريخيـة التـي لـم تنقطـع بـين الشـعب اليهـودي وأرض آبائهـم وأجدادهـم، وهـي علاقـة يعـترف القانـون الـدولي العـام بهـا ويقرهـا» (Rabkin: 2016: 42). ويُستشـف مـن ذلـك أن القيـادة السياسـية

الصهيونية كانت على وعي بالحاجة إلى تشكيل خطاب سردي يتناول الأمة «الحديثة» ويتضمن بين طياته القيم الدينية والخرافات القبلية من أجل إثبات صحة رواية يهودية محددة بشأن القدس في منظومة المعاني التي تتبناها الدولة.

وقد شددت الرواية المهيمنة التي اعتمدها الزعماء الصهاينة، على اختلاف مشاربهم، على المكانة المركزية التي يحتلها النص الديني اليهودي، وحرمة القدس باعتبارها عاصمة المملكة اليهودية الموحدة العتيقة والدولة اليهودية الحاضرة في تشكيل الهوية الجديدة/ القديمة.

للرواية دور اجتماعي وسياسي تؤديه (Hegel, 1988)، فهي تتيح وضع رواية كبرى يتشكل فيها المخيال الاجتماعي لشعب من الشعوب. وتتبدى الطرق المحورية التي يجري فيها تشكيل المخيال الاجتماعي في جماعة من الجماعات وتبرز في ثقافة هذه الجماعة. لذلك، يعد تكرار الرواية وترديدها عملًا تأريخيًا لفعل الروايات الكبرى. وفي هذا الإطار، سعت إحدى الروايات الصهيونية الاستيطانية التي تناولت القدس إلى تشكيل وعي جمعي في أوساط المستوطنين اليهود الذي حطوا رحالهم في فلسطين، حيث عملت هذه الرواية على توجيه هؤلاء المستوطنين إلى الاعتقاد بأن هذه المدينة إنما هي حقهم المشروع. وقد أفضى تعميم هذه الرواية الكبرى ونشرها إلى إضفاء طابع مادي على خطاب سردي سياسي بعينه وتجسيده ضمن الثقافة الإسرائيلية اليوم، والتي غدت ترفض أي تفسير آخر. وفي هذا الإطار القومي الإسرائيلي، اتُّخذت إجراءات عدة غايتها إحكام السيطرة على المدينة وحرمان «الآخر» الفلسطيني الأصلاني منها. ونبيّن في السطور الآتية كيف أن الرواية اليهودية الإقصائية تفرض نفسها على واقع القدس في الزمن الحاضر. فنتيجة لانقضاء الانتداب البريطاني على فلسطين وما أعقبه من اندلاع حرب العام ١٩٤٨ بين البلدان العربية والدولة الإسرائيلية الوليدة، بسطت إسرائيل سيطرتها على الشطر الغربي من مدينة القدس على حين خضع شطرها الشرقي لسيطرة الأردن.

وصرح بن غوريون بقوله:

إننا نرى أن واجبنا يحتم علينا أن نعلن أن القدس اليهودية جزء عضوي لا ينفصل عن دولة إسرائيل، مثلما هي جزء لا تنفصم عراه عن تاريخ إسرائيل، وعن دين إسرائيل وعن روح شعبنا ذاتها. إن القدس تقع في سويداء قلب دولة إسرائيل ... لا نتخيل أن منظمة الأمم المتحدة سوف ... تجحف بالسيادة الإسرائيلية على العاصمة الأبدية لإسرائيل (Benvenisti, 1976: 12).

ومرة أخرى، أصرت القيادة الإسرائيلية على تشكيل رواية كبرى عن القدس من خلال وضع أحداث معينة من أحداث الزمن الماضي في الاعتبار من أجل توجيه الواقع الاجتماعي والسياسي في الزمن الراهن. وقد كبدت حرب العام ١٩٦٧ الفلسطينيين خسارة أخرى بعدما وقعت القدس الشرقية تحت سيطرة دولة إسرائيل. وشدد القرار ٢٤٢ الصادر عن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في شهر تشرين الثاني ١٩٦٧ على «مبدأ عدم جواز الاستيلاء على الأرض عن طريق الحرب ...»[٢] ومع ذلك، تجاهلت إسرائيل جميع مطالب المجتمع الدولي وضربت صفحًا عنها وأكدت ادعاءها بحقها في المدينة بسن قانون القدس لسنة ١٩٨٠.[٣] وشكّل هذا القانون نظام الحقيقة الذي فرض روايته على المدينة عن طريق السلطة. ووظفت هذه الرواية التوسعية موضوع الشرعية اليهودية نفسها ورواية أوروبية المنحى والتوجه تقوم على شيطنة الشعب الفلسطيني الأصلاني، في الوقت نفسه الذي تجرد فيه الفلسطينيين من حقهم في أرض وطنهم.

منذ ذلك الحين، عملت المطالب التي وجّهها المجتمع الدولي إلى إسرائيل بالتخلي عن سيطرتها على الشطر الشرقي من مدينة القدس على تطبيع مفهوم جديد للواقع أضفى طابعًا ماديًا على المدينة التي جرى تقسيمها في العامين ١٩٤٨ و١٩٦٧ وجسّده بوصفه القاعدة الجديدة. فصار المجتمع الدولي ينظر إلى القدس الشرقية بوصفها ذلك الشطر من المدينة الذي استعمرته إسرائيل، في الوقت الذي يغض الطرف فيه عن الواقع الذي يشهد على أن النهج نفسه الذي انتهج الإرهاب بحق الحيز الذي كان الفلسطينيون يعيشون فيه في شطرها الغربي والعنف الذي مارسه بحقهم واستيلاءه عليه إنما جرى قبل ما لا يزيد على عقدين من ذلك. وحسبما ذكرناه آنفًا، يكمن الدور الذي تضطلع الرواية به في الواقع الذي تشكّله. وبناءً على ذلك، اعتمدت دولة إسرائيل، حالما تشبثت بهذه الرواية، تدابير متباينة كانت الغاية منها تشكيل واقع مادي يخص القدس بأسرها باعتبارها مدينة واحدة وموحدة تخضع

لحكم دولة إسرائيل. وفي المحصلة، فرض النظام الاستعماري الإسرائيلي روايته من خلال خلق وقائع على الأرض تهدف إلى تأييد ادعاءاته ورفدها.

وبناءً على ذلك، لم تدع دولة إسرائيل بعدما احتلت القدس الشرقية في العام ١٩٦٧ فرصة سنحت لها إلا وأكدت فيها الطابع اليهودي الذي تكتسيه المدينة ومكانتها المهمة بوصفها العاصمة اليهودية «الموحدة» لدولة إسرائيل. وقد أسهم التناوب بين «دولة إسرائيل» الحديثة و«إيرتز يسرائيل» (أرض إسرائيل) في إنجاز الغاية التي توخت دمج الروايات المختلفة وصهرها في رواية متساوقة واحدة اختزلت الماضي والحاضر والمستقبل ووضعتهم في خطاب سردي قومي واحد لا ثاني له.

وقد استند بناء هذه الهوية القومية اليهودية في أساسه إلى علم الآثار من أجل إضفاء المصداقية على السلطة التي تملكها إسرائيل والسيطرة التي تبسطها على القدس وعلى الحيز الذي يعيش الفلسطينيون فيه. وتنظر الدولة الإسرائيلية إلى التنقيب عن المكتشفات اليهودية باعتبارها تأكيدًا لحقوقها في فلسطين التاريخية بعمومها في القدس على وجه الخصوص.

اعتمدت دولة إسرائيل، منذ البداية، على علم الآثار من أجل إثبات وجود الشعب اليهودي في فلسطين وتأكيد ما كان مخطوطًا في كتابه المقدس. فسعى علماء الآثار الذين داروا في فلك هذه الدولة إلى ربط الخيوط بعضها ببعض بغية الكشف عن العصر الذهبي الذي عاشه اليهود في القدس. لذلك، كانت رواية قومية في طور التشكل، حيث قامت في أساسها على التنقيب عن الاكتشافات الأثرية التي تؤيد هذه الرواية وترفدها في الوقت نفسه الذي تغفل فيه تلك الرواية التي لا تتواءم مع الرواية التي تتبناها الدولة أو تقوّضها من قواعدها.

> لم تقتصر أعمال التنقيب في القدس على إنتاج سجل أثري جديد، وإنما سجل أثري محدد على وجه الخصوص ... الثقافة المادية – الظواهر الجديدة التي أُنتجت من خلال العمل الذي أنجزه علم الآثار – أظهرت للعيان تاريخ القدس (اليهودي) على أرض الواقع، مما شكل السياق والإحداثيات التي تستطيع من خلالها الممارسات التي تتعهدها الدولة الاستيطانية ترجمة هذه المستعمرة التي غزتها في عهد قريب إلى حيز قومي – مرة أخرى. (Abu El-Haj, 2001:162)

لقد وظف المسؤولون الإسرائيليون التنقيب عن الآثار اليهودية من أجل تشكيل رواية يهودية بشأن مدينة القدس، في الوقت نفسه الذي أهملوا فيه وجود أدلة أخرى على المجتمعات المتنوعة التي عاشت فيها على مدى الزمن، وقرنوها برواية تشرعن إجراءاتهم الاستعمارية. «... فقد نظر أبناء الطائفة اليهودية الفلسطينية على وجه الخصوص، والحركة الصهيونية على وجه العموم، إلى اكتشاف القطع الأثرية والنقوش اليهودية في القدس على أنها تثبت صحة الحقوق السياسية الحديثة وتؤيدها» (Silberman, 2001:496).

لذلك، جرى الإعلان عن الحائط الغربي والمنطقة التي تقع بجواره على أنهما يهوديتان في أعقاب احتلال القدس الشرقية في العام ١٩٦٧، وبات «طابعهما اليهودي» يرمز إلى عودة الشعب اليهودي الذي عاش في فلسطين إبان العهد العبراني أدراجه إليها من خلال تجسيد دولة إسرائيل وتحويلها إلى أمر واقع. وقد جرى تطبيع هذه الرواية التي تضفي طابعًا جوهرانيًا على تاريخ الشعب اليهودي في القدس من خلال مؤسسات الدولة وأجهزتها من أجل إنتاج واقع بعينه.

وعلاوةً على ما تقدم، تسلط دولة إسرائيل الضوء على التاريخ اليهودي الذي تتسم به فلسطين وتفسر تاريخ فلسطين باعتباره تاريخًا ينحصر في اليهود وحدهم. وقد تلاعبت دولة إسرائيل، من خلال إرساء دعائم هذه الرواية، في الأحداث التاريخية من أجل تشكيل رواية تستسيغها وتتماشى مع رغبتها. وفي هذا السياق، عمد النهج الانتقائي الذي سلكته الحفريات الأثرية التي تضع نصب عينيها على التنقيب عن الآثار الباقية من حقبتيْ الهيكل الأول والهيكل الثاني إلى اختيار رواية معينة تتسم بمحدودية نطاقها وعملت على استبعاد إمكانية وجود تصور أعم للمدينة باعتبارها حاضرة من حواضر الإمبراطورية الرومانية.

> بعبارة أخرى، تسرد هذه الأعيان نفسها حكاية تاريخ بعينه في الوقت نفسه. وهذه رواية أنتجت عبر الاختيار الذي اتُّخذ بشأن البقايا التاريخية التي يتعين المحافظة عليها ووسمها وعرضها وبشأن الروايات التي ينبغي سردها. فالتاريخ يخضع للتشكيل

تمكنت دولة إسرائيل من تشكيل خطاب سردي يجمع بين أنظمة المعارف على اختلاقها ويضمها في إنتاج رواية كبرى تؤكد الطابع اليهودي الذي أضفته على المدينة. ولذلك، وظفت إسرائيل النص الديني في تشكيل رواية عن المدينة في عصورها القديمة، وهي رواية يهودية حصرًا، ثم عمدت إلى توظيف التاريخ وعلم الآثار بغية تأكيد هذا الادعاء الذي ساقته.

> ... وبما يتوافق مع تسلسل زمني تأريخي يمنح الأفضلية للهويات القومية على الإمكانيات الأخرى. وهذه بقايا عبرانية، وليست بقايا العصر الحديدي. فالمتاحف تحكي تاريخ المدينة التي حكمها هيرودس، ولا تسرد رواية المدينة التي ترجع إلى أوائل العهد الروماني. (El-Haj:2001,188-189)

ثم تُدمج تلك المشاهد المادية والأحداث التي تسرد روايتها وتُضمَّن في الرواية القومية التي تخطها الدولة اليهودية، التي تولي الأولوية للرواية اليهودية وتحتفي بتفوق اليهود على أي روايات قومية أو دينية أخرى وسموهم عليها.

لقد أنشأت الدولة الصهيونية نظامًا يقوم على تمثيل المدينة من خلال تكثيف صور منتقاة من الماضي من أجل تشكيل واقع «محدد» لإسرائيل اليوم. ويشكِّل هذا الواقع عن طريق اللغة لغايات إنتاج خطاب سردي محدد عن إسرائيل اليهودية. والخطاب السردي ليس بالخطاب المحايد. ففي حالة إسرائيل، يقدس الخطاب السردي القومي دولة إسرائيل الحديثة من خلال ما يضفيه من قداسة على التاريخ والأمة معًا. وقد استند تشكيل خطاب سردي يتناول القدس في أساسه إلى تشكيل رواية تتناول إسرائيل بوصفها دولة حديثة لها إنجازاتها العلمية والتقنية التي تضرب جذورها في تاريخها وتقاليدها. وتشكل الرواية الصهيونية التي تتطرق إلى وجود اليهود في المدينة واقعها في مواجهة الفلسطينيين الأصلانيين الذين يُنظر إليهم كما لو كانوا أفّاكين محتالين شوّهوا معالم العاصمة اليهودية. وتحولت المدينة، بعد ذلك، إلى مدينة من مدن العجائب اليهودية، حيث يجري فيها التنقيب عن خبايا الماضي من أجل الارتقاء بمدينة يهودية ترحب بكل يهود العالم. وقد شكلت الدولة هذا الواقع عن طريق إفراغ المدينة من شطر لا يستهان به من تاريخها الفلسطيني الإسلامي والمسيحي[4] الأصلاني (Annabel, 2006).

تمكنت دولة إسرائيل من تشكيل خطاب سردي يجمع بين أنظمة المعارف على اختلاقها ويضمها في إنتاج رواية كبرى تؤكد الطابع اليهودي الذي أضفته على المدينة. ولذلك، وظفت إسرائيل النص الديني في تشكيل رواية عن المدينة في عصورها القديمة، وهي رواية يهودية حصرًا، ثم عمدت إلى توظيف التاريخ وعلم الآثار بغية تأكيد هذا الادعاء الذي ساقته. ومن خلال هذا التشكيل، تلاعبت إسرائيل في الماضي الذي دمجته في الحاضر وزيفته، كما حولت المعنى الرمزي الذي انطوت عليه المدينة «الأبدية» في الديانة اليهودية إلى معنى مادي فرضته على هذه المدينة «التي استباحتها». وغدا الخطاب السردي الذي يتناول مدينة القدس برنامج العمل الذي يشكل المدينة المادية اليوم، والذي ما فتئ يتوسع حتى يلتهم الجانب الأكبر من الحيز الذي يقطنه الفلسطينيون في المدينة نفسها وفيما يجاورها من المناطق «الحضرية» التي أعيدَ تأطيرها كما لو كانت جزءًا من هذه المدينة اليهودية المقدسة.

وفي المحصلة، يجري إنتاج رواية مسيحانية صهيونية كبرى تصور روايتها على أنها الحقيقة النهائية وتكثفها في برنامج عمل قوامه مخيال اجتماعي وثقافة اجتماعية للمشروع المسيحاني الصهيوني الإقصائي، وهو برنامج ما انفكّ يفعل فعله في الوقت الراهن.

الرواية الفلسطينية اليوم: رواية مشتتة

على نقيض الخطاب السردي الإسرائيلي بشأن مدينة القدس، ما فتئت الرواية الفلسطينية التي تتناول المدينة تُختزل في رواية تاريخها الفلسطيني من خلال طرح الادعاء بحق الفلسطينيين في الفتات اليسير منها باعتباره العاصمة الفلسطينية «العتيدة». إن حق الأمة الفلسطينية الذي لا يختلف عليه اثنان في المدينة في العصر الحديث يضمنه ويكفله وجود وفرة من السجلات المادية وغير المادية التي يبدو أن النسيان طواها في الخطاب السردي القومي الفلسطيني اليوم. فحسبما تقدم ذكره، ينتج الخطاب السردي واقعًا اجتماعيًا وسياسيًا. وفي الواقع الراهن، شُوهت القدس ومُسخت إلى أن صارت قدسًا شرقية نُسي شطرها الغربي الذي يُعد جوهرها الذي لا ينفصم عنها. تكمن هذه السمة الجوهرانية في إرساء رواية قومية تطالب بتحقيق العدالة والإنصاف من القمع الممنهج الذي أنزله الاستعمار بأبناء الشعب الفلسطيني وبالحيز الذي يعيشون فيه وانتزعه النظام الاستعماري الصهيوني وأعاد صياغته كما لو كان حيزه الذي يخصه هو.

حسبما ذكرنا فيما تقدم من هذه الورقة، يفصح تشكيل الرواية عن رواية مُحكمة ومتراصة تتناول حبكة تنطوي على أحداث وتجد ما يعززها ويرفدها لكي تُخرج تلك الرواية المحددة إلى النور. وليس في الخطاب السردي الذي يتطرق إلى القدس الفلسطينية اليوم من أحداث مدونة تدور في مدينة فلسطينية كانت تنبض بالحياة وتحث الخطى نحو الحداثة. فعشية الاستعمار البريطاني، كانت القدس خلال النصف الأول من القرن العشرين حاضرة تنعم بالحداثة وكانت تلاقي تنوع الجماعات العرقية والإثنية فيها بالترحاب والقبول في ربوعها.

ينبغي أن تُسرد الرواية الفلسطينية التي تتطرق إلى القدس اليوم ضمن إطار ماضٍ ساده الاستعمار وهيمن عليه وبدأ بسيطرة البريطانيين على فلسطين وقمع المبادرات التي أطلقها الفلسطينيون في سبيل تحرير أرض وطنهم، مقابل إضفاء سمة مشروعة على الحركة الصهيونية الاستعمارية الأجنبية على يد القوى العالمية في ذلك العهد، والتي عملت على شرعنة الرواية الصهيونية وإخراجها في ثوب طبيعي على حساب الرواية الفلسطينية.

ويُستهل تاريخ هذه المدينة الفلسطينية من المخيالات التي وضعها القائمون على المشروع القومي الفلسطيني، الذين تخيلوا دولة حديثة تقوم في أسسها على التاريخ الديني الذي يتصف بغناه وتنوعه لكي تصبح عاصمة فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر.[٥]

وقد ترافقت نشأة الوعي الجمعي القومي الفلسطيني مع وجود تهديدين خارجيين كانا يلوحان في الأفق ويعتريان فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر، حيث كانت الإمبراطورية العثمانية تتهاوى وسيطرتها على فلسطين والقدس تتداعى. ويشكل الدور الذي اضطلع الانتداب البريطاني به في حرمان الفلسطينيين من حقهم في تقرير مصيرهم جانبًا من الرواية التي تتناول القدس الفلسطينية التي استولى عليها. ويعد استعمار الشطر الغربي من مدينة القدس خلال العام ١٩٤٨ على يد العصابات الصهيونية شبه العسكرية جانبًا آخر من الرواية بشأن القدس الفلسطينية أيضًا.

فحتى هذا اليوم، لا تزال أحياء البقعة الفوقا والتحتا والقطمون والمصرارة والطالبية والمالحة وعين كارم الفلسطينية ... تشهد على مشروع الحداثة المتعثر الذي تعهده المجتمع الفلسطيني على مدى الفترة الممتدة بين الحربين العالميتين. وفضلًا عن ذلك، يذكّرنا هذا المشروع على الدوام بالمشروع الصهيوني الطفيلي الذي برز إلى الوجود باستيلائه على عاصمة فلسطين المادية والثقافية. كما اجتاحت العصابات الصهيونية القرى الزراعية المجاورة التي تحيط بالقدس الغربية ودمرتها في سياق المحاولة التي بذلتها على صعيد محو ذاكرة المكان وطمسها. «فمن بين ٤١ قرية عربية فلسطينية في هذه المنطقة، هُدمت ٣٧ قرية عن بكرة أبيها، على حين ارتفع عدد المستوطنات اليهودية من ست مستوطنات إلى ٣٩ مستوطنة» (Dumper, 1997: 70-71).

لم ينل الفلسطينيون استقلالهم القومي في وطنهم بفعل جملة الأسباب التي عرّجنا عليها أعلاه. ومع ذلك، قررت القمة العربية الأولى التي عُقدت في القاهرة في العام ١٩٦٤ إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية بصفتها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني وغايتها إقامة دولة فلسطينية مستقلة. وبناءً على ذلك، تصرح الرواية الفلسطينية التي اعتُمدت في وثيقة إعلان الاستقلال الفلسطيني بهذا التصريح: «فإن المجلس الوطني يعلن، باسم الله وباسم الشعب العربي الفلسطيني

الرواية الفلسطينية التي تتناول القدس اليوم رواية منقوصة لأنها تعتمد في بعض مواضعها على الحقوق الدينية التي يملكها السكان الفلسطينيون فيها، على حين ترتكز في مواضع أخرى على إطار وطني مع أنها تصوغه ضمن رواية قاصرة تتناول حق الفلسطينيين في القدس الشرقية التي جرى تشويه معالمها وسلخها عن محيطها كما لو كانت معزولة عن تاريخ هذه المدينة.

قيام دولة فلسطين فوق أرضنا الفلسطينية وعاصمتها القدس الشريف».[٦] وتشير القدس في هذا الإعلان إلى الشطر الشرقي من المدينة. وشهدت السنوات التالية، وفي أعقاب مبادرات دولية عدة طُرحت لإحلال السلام في نهاية القرن العشرين، إنشاء السلطة الفلسطينية باعتبارها سلطة انتقالية تتمتع بالحكم الذاتي على أساس اتفاقيات أوسلو التي أُبرمت في العام ١٩٩٣. وفضلًا عن ذلك، ينص إعلان المبادئ الذي جرى التوصل إليه في العام ١٩٩٣ على تأجيل قضية القدس وغيرها من القضايا «الشائكة» إلى مفاوضات الوضع النهائي التي كان من المقرر مباشرتها في العام ١٩٩٦، بيد أنها لم تنطلق قط بسبب توقف مفاوضات السلام بين الطرفين. وقد أتاح هذا الحال للدولة الإسرائيلية أن توسع نطاق قبضتها وتُحكِمها على المدينة في ظل ما أضفاه المجتمع الدولي من صفة طبيعية على سلب العاصمة الفلسطينية، دون أن يكفّر عن ذنبه في ذلك.

استعادة الرواية الفلسطينية: نهج قائم على إنهاء الاستعمار وتفكيكه

يكمن جانب من جوانب تشكيل رواية فلسطينية في إنهاء الاستعمار الذي يهيمن على الرواية الراهنة بشأن القدس واستعادة الأحداث السالفة من خلال دمجها وتضمينها في رواية فلسطينية كبرى. ولتحقيق هذه الغاية ينبغي للرواية الفلسطينية أن تحرر نفسها من القيود التي تحول بينها وبين سرد رواية تاريخها وعن تلك الرواية المهيمنة التي وضعتها إسرائيل والغرب. وتتفاوت هذه القيود وتضم بين جنباتها الولايات المتحدة الضالعة في إضفاء حالة طبيعية على الاعتداءات التي تشنها إسرائيل على الفلسطينيين من خلال تطبيع الرواية التي تسوق فيها بأن إسرائيل إنما هي نظام ديموقراطي يملك حقوقًا مشروعة في فلسطين التاريخية بناءً على التصور البدائي لهويتها الجمعية القائمة على الإقصاء. وزيادةً على ذلك، عمل هذا الدعم على قمع الرواية الفلسطينية، حيث دأب على تصوير الفلسطينيين باعتبارهم ينتهجون العنف وعلى أنهم ليسوا بموضع الاستحقاق ولا الجدارة. ويرجع هذا الدعم الذي ينحاز للرواية الاستعمارية الإسرائيلية إلى التاريخ في أصوله، وذلك عندما وظفت الإمبراطورية البريطانية، وهي القوة العالمية التي عفا عليها الزمن، هذه المنهجية نفسها في حرمان الفلسطينيين من إقامة دولتهم القومية وأتت على أي إمكانية يسرت لهم إقامتها. لذلك، ينبغي لكتابة رواية فلسطينية كتابة صحيحة أن تنطلق من تلك المرحلة الزمنية التي تكالبت فيها القوى الخارجية واجتمعت على حرمان الفلسطينيين من حقهم في أرضهم. وفضلًا عن ذلك، يكشف سعيد النقاب عن عجز الرواية الفلسطينية عن الإفصاح عن نفسها في وجه جمود المجتمع الدولي بعمومه وانصرافه عن الإصغاء إليها.

والرواية الفلسطينية التي تتناول القدس اليوم رواية منقوصة لأنها تعتمد في بعض مواضعها على الحقوق الدينية التي يملكها السكان الفلسطينيون فيها، على حين ترتكز في مواضع أخرى على إطار وطني مع أنها تصوغه ضمن رواية قاصرة تتناول حق الفلسطينيين في القدس الشرقية التي جرى تشويه معالمها وسلخها عن محيطها كما لو كانت معزولة عن تاريخ هذه المدينة.

إن غياب رواية قومية ومتماسكة ومتكاملة بشأن القدس في الخطاب السردي القومي الذي يعتمده

الفلسطينيون في يومهم هذا يقوض ادعاءهم القومي بأحقيتهم في المدينة باعتبارها عاصمتهم المشروعة التي سُلبت منهم بالعنف على يد النظام الاستعماري الذي فرضه الانتداب البريطاني أولًا ثم النظام الاستعماري الاستيطاني اليهودي الذي نما وترعرع في كنف النظام البريطاني ثانيًا.

وبينما سجلت الرواية الصهيونية الإسرائيلية النجاح في تشكيل رواية قومية حول المدينة من خلال إضفاء طابع جوهراني على تاريخ أحادي الاتجاه يرجع إلى العصور السحيقة، يبدو أن الرواية الفلسطينية اليوم تنسى جانبًا لا يستهان به من التاريخ الحديث الملموس الذي يثبت المظالم وأعمال العنف التي اقتُرفت بحق الفلسطينيين وأنزلت بعاصمتهم في الماضي القريب.

في سبيل الوقوف في وجه الرواية الإسرائيلية اليوم، فإن السؤال المطروح يتمثل في ما تبدو عليه الرواية القومية الفلسطينية بشأن القدس والحقبة الزمنية التي يجب أن تُستهل هذه الرواية منها؟ ويحتل هذا السؤال أهمية حاسمة في واقع اليوم الذي باتت هذه المدينة فيه أسيرة للرواية المسيحانية الصهيونية التي عملت على تطبيع، بل وشرعنة، الممارسات الاستعمارية التي تنفذها إسرائيل تجاهها وتجاه سكانها الفلسطينيين، في الوقت نفسه الذي تنفي فيه الصفة المشروعة عن الادعاءات القومية التي يسوقها الفلسطينيون بأحقيتهم في المدينة باعتبارها جزءًا من وطنهم القومي السليب.

ولا يخفى على المرء أن غياب رواية فلسطينية متماسكة بشأن مدينة القدس يرجع سببه إلى القيادة الفلسطينية التي تفتقر إلى الكفاءة التي تيسر لها ترسيخ رواية قومية تضع القدس في قلب قضية فلسطين وفي موضع الصدارة منها، فضلًا عن المجتمع الدولي الذي ما فتئ يرفض السماح للفلسطينيين بسرد روايتهم.

ينبغي التمييز بين رواية قومية تمثل رواية كبرى تسترشد الثقافة والهوية الفلسطينيتان بها من جهة ورواية سياسية من جهة أخرى في سياق العمل على تشكيل رواية قومية فلسطينية بشأن القدس. فلا غنى عن اعتماد رواية قومية فلسطينية في إطار العمل على بناء هوية فلسطينية تضرب جذورها في التاريخ ولها رؤية تستشرف المستقبل بها. هذه الرواية رمزية وفعالة وتتصل بالطريقة التي يختارها الفلسطينيون بوصفهم كيانًا جمعيًا في تشكيل هويتهم السردية من أجل بناء مستقبلهم. لذلك، ينبغي أن تستند الرواية القومية الفلسطينية بشأن مدينة القدس إلى الذاكرة الجمعية التي تتكفل بتأمين الحماية لثقافة الفلسطينيين وتراثهم في المدينة وصونهما. كما يجب أن يتراءى لهذه الرواية ما تعنيه القدس بالنسبة للجماعة القومية الفلسطينية والمكانة المحورية التي تتبوأها في بناء الأمة الفلسطينية وهويتها. وبناءً على ذلك، ينبغي أن تنغرس القدس في المفهوم الذي يحمله الفلسطينيون عن ذواتهم ويستندون فيه إلى تاريخ طويل وحافل يسترشد بالهوية السردية التي تقر بموقعها المركزي بالنسبة للديانات السماوية الثلاث وباعتبارها عاصمة قومية للدولة الفلسطينية. ومن شأن هذه الرواية أن تمكّن الفلسطينيين من صياغة خطاب مقابل يقف في مواجهة الخطاب الإسرائيلي المهيمن. على خلاف التفسير البدائي والإقصائي الذي تعتمده إسرائيل بخصوص المدينة، على الرواية الفلسطينية أن تتبنى تفسيرًا ديمقراطيًا وشموليًا بشأن مدينة القدس الغنية بتعدد الثقافات التي تحتضنها وتجمعها بين جنبيها. فبهذه الطريقة، قد يملك الفلسطينيون القوة التي تيسر لهم أن يستعيدوا روايتهم ويؤكدوها ويشكلوها ضمن إطار التاريخ والعدالة والمعارف التي تفكك الاستعمار وتنهيه في وجه السلطة التي تمارس الهيمنة على رقابهم.

من جانب آخر، تعد الرواية السياسية فرعًا من فروع الخطاب السردي الفلسطيني. فهي رواية مادية وتتأثر بالواقع السياسي القائم على الأرض وتتجسد في علاقات السلطة الأعم التي يمكن أن تجبر الفلسطينيين الذين يعانون من الحرمان ويخضعون للتهميش على يد هياكل السلطة التي تهيمن عليهم على التنازل عن حقوقهم.

في ضوء ما تقدم، ينمّ الخطاب القومي الفلسطيني الذي يميز بين هوية سردية وواقع سياسي ويكشف هذين المحورين ضمن خطاب سردي عن نضوج سياسي من جانب القيادة بالنظر إلى أنه يرسخ الثقة بينها وبين مواطنيها الذين يُنظر إليهم على أنهم شركاء، وليسوا رعايا ينبغي بسط سلطة الحكم عليهم.

الهوامش

١ نستخدم المصطلح «مشروع» لكي نبين أن تعريف القدس في الروايتين القوميتين التي تقف الواحدة منهما على طرفي نقيض مع الأخرى لا يزال في طور التكون والتشكل. فالرواية الإسرائيلية تعتمد تعريفًا توسعيًا لما تعنيه القدس لكي توسعها إلى ما يتجاوز حدودها التاريخية وتبتلع المناطق المحيطة بها لغايات توسيع المدينة وزيادة رقعتها. كما توسع هذه الرواية القدس من الناحية الزمانية لكي تربط تاريخ الشعب اليهودي الذين سكنوا المدينة في القرون السالفة بالمشروع الاستعماري الصهيوني الذي يشكل إسرائيل اليوم. وفي المقابل، ما انفك الفلسطينيون يتبنون موقفًا قائمًا على ردة الفعل في ردهم على السلطة المهيمنة التي تفرضها إسرائيل، دون أن يصوغوا رواية قومية بشأن القدس في الوقت نفسه.

٢ مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، القرار ٢٤٢، على الموقع الإلكتروني: https://info.wafa.ps/ar_page.aspx?id=4963

٣ قانون أساس بشأن القدس، على الموقع الإلكتروني: https://rb.gy/swq5wa (وقد اطلعنا عليه في ٢٢ تشرين الثاني ٢٠٢٢).

٤ المسيحية ديانة أصيلة من الديانات في القدس وفلسطين، وهي تقف على طرفي نقيض مع المسيحية الغربية التي كانت ضالعة في المشاريع الاستعمارية ومظاهر الاستشراق.

٥ للاطلاع على تاريخ الشعب الفلسطيني والمخيال القومي وتشكيل الهوية القومية، انظر: Khalidi 1997, Asali, 2000

٦ وثيقة إعلان الاستقلال الفلسطيني، ١٩٨٨، على الموقع الإلكتروني: https://info.wafa.ps/ar_page.aspx?id=4938 (وقد اطلعنا عليه في ٢٢ تشرين الثاني ٢٠٢٢).

المراجع

- Abbot, H. Porter, the Cambridge Introduction to Narrative, MA: Cambridge University Press, 2008.
- Abu El-Haj, Nadia, Facts on the Ground: Archeological Practice and Territorial Self-Fashioning in Israeli Society, Chicago: The University of Chicago Press, 2001, p. 162.
- Anderson, Benedict, Imagined Communities, NY: Verso Books, 1983.
- Asali, K.J. (ed.) Jerusalem in history, NY: 2000
- Benvenisti, Meron, Jerusalem, the Torn City, Minn.: University of Minnesota Press,1976.
- Bernstein, J.M. Garand Narratives in Wood, David, 'On Paul Ricoeur,' Routledge, 1991.
- Dumper, Michael, The Politics Of Jerusalem, NY: Columbia University press, 1997.
- Foucault, Michel, Power, NY: the New York Press, 2000.
- Foucault, Michel, The Archeology of Knowledge and the discourse on language, NY: Pantheon Books, 1972.
- Hegel, G.W.F. Introduction to the Philosophy of History, Indianapolis: Hackett Publishing company, 1988.
- Khalidi, Rashid, Palestinian Identity: The Construction of Modern National Consciousness, Columbia University Press, 2009.
- Rabkin, Yakov M. what is modern Israel? London: Pluto Press, 2014.
- Ricoeur, Paul, Narrative identity in Wood, David, 'On Paul Ricoeur,' Routledge, 1991.
- Said, Edward W. The Question of Palestine, NY: Vintage Books, 1992.
- Said, Edward, Permission to Narrate, Journal of Palestine Studies, Spring 1984, No.3, pp.2748-.
- Sand, Shlomo, The Invention of the Jewish People, NY: Verso Books, 2009.
- Silberman, Neil Asher, If I forget thee, O Jerusalem: archeology, religious commemoration, and nationalism in a disputed city, 18012001-, Nations and Nationalism 7 (4), 2001, 487504-, p. 496.
- Smith, Anthony D. The Ethnic Origins of Nations, Mass.: Blackwell publications,1988.
- Wharton, Annabel Jane, Selling Jerusalem: Relics, Replicas, theme parks, Chicago: Chicago University press, 2006.
- White, Hayden, the content of form: Narrative Discourse and Historical representation, Baltimore: John Hopkins University Press, 1990.
- Wood, David (ed.) On Paul Ricoeur, Routledge, 1991.
- Zerubavel, Yael, Recovered Roots: Collective memory and the making of Israeli national tradition, Chicago: the Chicago University Press, 1995.